الخطاب الإسلامي والتجديد

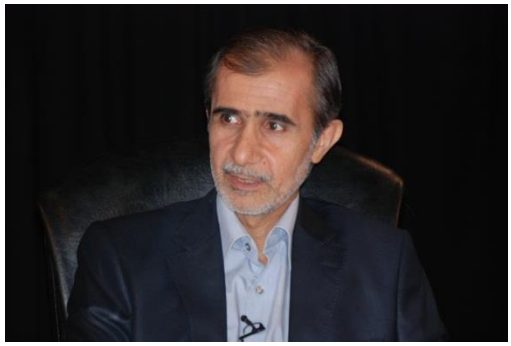

سالم الحاج

✍لا بد في البداية من تحديد ماذا نريد وما المقصود بالخطاب الإسلامي؟.. لأنه من المعلوم أن الخطاب الإسلامي ليس شيئاً واحداً، ولا تمثله جهة واحدة، فهناك أنواع كثيرة من الخطابات، كلها تدعي تمثيلها للإسلام الحق، بدءاً من خطاب وزارات الأوقاف، وليس انتهاء بخطاب الحركات الإسلامية السياسية، مروراً بخطاب الجماعات الصوفية، والسلفية، وغيرها.. فما هو الخطاب الإسلامي؟

فكل جهة من هذه الجهات لها خطابها الذي تتبناه وتدافع عنه، وتعتبره المعبر الحق عن الإسلام. والدخول في تفصيلات هذه الخطابات، ومضامينها، يحتاج إلى جهود كبيرة. ولكنا بدلاً من ذلك سنحاول أن نتحدث عن ذلك الخطاب الذي جاء به الرسول محمد – صلى الله عليه وسلم –، في أواخر القرن الخامس الميلادي، والمتمثل في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، والذي لم يزل العلماء العاملون يقومون على شرحه وتقريبه وتفهيمه للناس!

وبداية لا بد من القول أن الإسلام، بوصفه ديناً، وخطاباً إلهياً - متمثلاً في القرآن الكريم، وتطبيقاته العملية المجسدة في حديث رسوله الكريم وسيرته - هو شأن مقدس، غير قابل للنقص أو النقض، وأمّا ما يقوم به العلماء؛ من شرح، وتبليغ، وتفهيم للدين، فهو شيء آخر لا يمتلك القداسة، ولا المعصومية، وهو شأن بشري، غير مقدس، ولا ينسب إلا

إلى أصحابه، والقائمين به.. وهذا هو الفرق بين الدين وفهم الدين.. بين الدين والخطاب الديني!

فالدين هو وحي الله سبحانه، وخطابه، الذي أنزله على رسوله الكريم محمد – صلى الله عليه وسلم –، وأما الخطاب الديني فهو فهم المسلمين، واجتهاداتهم، وشروحهم القائمة على هذا الوحي.. فالأول هو شأن مقدس وإلهي، وثابت، في حين أن الثاني هو شأن بشري، غير مقدس، ومتغير، يقاس مدى صوابه وصحته، بمدى اقترابه ومطابقته للحق الذي يمثله الدين. ومن هنا نرى أن أي قراءة، أو شرح، أو فهم لنصوص الوحي، سيكون شأناً بشرياً، يعتوره النقص، وتعتريه النسبية، وهو ما نراه مجسداً في المذاهب، والفرق، والقراءات، والتفاسير، واجتهادات العلماء، وهي كلها شيء آخر غير الوحي، لا يحمل قداسته، ولا ثباته..

ولذلك، فنحن عندما نريد الحديث هنا عن الإسلام كما أنزله الله سبحانه على قلب نبيه محمد - صلى الله عليه وبارك-، فلن يسعنا أن نتجاوز المصدرين الأساسين للإسلام: القرآن الكريم، وسنة الرسول المجسدة له.. ولكننا ما إن نبدأ بالأخذ من هذين المصدرين، والتلقي عنهما، حتى يبدأ الاختلاف، وتنشأ الفرق والمذاهب، وتتباين التفاسير والتأويلات، وكل يخرج منهما بما فهم وعلم.. أي إن الطريق ينفتح واسعاً أمام الفهوم والاجتهادات البشرية..!

وتلك هي سنة الله، وحكمته.. فلا عصمة، ولا قداسة، ولا ثبات، لغير الوحي، وكل ما سواه فهو فهم بشري نسبي.. فالتعامل البشري مع النص الإلهي، والتفاعل معه، وما ينتج عنه من اجتهاد، وخطاب، هو الذي يأخذ بخطى البشر نحو التجديد الدائم، في ظل هداية الوحي وعنايته.. وهذا هو الباب الواسع الذي فتحه الإسلام أمام البشرية، فيما عرف بـ (الاجتهاد)، و(التجديد)!

وهذا الأمر يثقل كاهل الإنسان بالمسؤولية، من جهة، ولكنه يفتح أمامه طرق التقدم والازدهار، ومواجهة تغيرات الزمان والمكان، من جهة أخرى.. لأن قطعيات الدين (الوحي)، ليست من أجل قطع الطريق عليه، أو اضطهاده، بل هي التي تحدد له مسار الطريق، وتهديه، وتسدده، إن جرى التعامل معها كما هي، وليس كما جرى في تاريخ كثير من أتباع دين الله، الذين ساروا على عكس مقاصد الدين، وخاصة خارج سياق الإسلام..

ولذلك، فليس ثمة شيء محدد ودقيق ومتعال على الزمان والمكان يمكن أن نطلق عليه اسم الخطاب الإسلامي، ولكننا أمام خطاب متغير، ومتعدد، ينتح من الوحي، ويستلهم منه، ويتكئ عليه، وهو في تطور وتغير مستمرين، بحسب تغير الزمان والمكان..

فالقرآن الكريم خطاب الله تعالى إلى العقل البشـري، مطلـق العقـل البشـري، ولـيس العقل الذي كـان يعـيش في الجزيـرة العربيـة يومـذاك، والمحـدود بمعطيـات ذلـك الزمـان والمكان. وهذا واضح من توجيه القرآن لمشـركي العـرب، وتنبـيههم إلى عـدم جـدوى طلـب المعجزات والخوارق من النبي المرسل إلـيهم، ذلـك أنـه سـبحانه قـد قـرر مخـاطبتهم عـن طريق عقولهم، بعد إذ مضـى زمن كان العقل البشـري فيه أدنى من أن يفهم هـذه اللغـة الرمزية، وكان لا يفهم إلا ما يراه عن طريق حواسه:

(أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ).

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ).

وهذا التوجه بالخطاب إلى العقل، هو الذي فتح الباب أمـام ولادة الخطـاب الإسـلامي، بالمعنى الذي تحدثنا عنه أعلاه.. هذا الخطاب الذي يتميز بأنه خطاب مفتـوح، وأنـه عـلى الرغم من استناده إلى نص مقدس، واعتماده عليه، فإنه هو في ذاته لا يمتلـك القداسـة، ولا يعدو أن يكون خطاباً وفهماً بشـرياً.. وحتى (اجتهاد) الفقهـاء المسـلمين، عـلى الـرغم مـن كونه قائماً على أساس النص المقدس، ويستلهم منه، إلا أنه ليس ملزِماً للناس، بل هـو فهـم للدين، واجتهاد فيه، لا يلزم إلا صاحبه.. ولا يلزَم به الناس إلا في حالة أن يتبناه أولو الأمـر، فيكون آنذاك قانوناً بشـرياً، له قوة القانون وإلزامه.. ولا يعني هذا – بطبيعة الحـال – أن التزام المسلمين بآراء الفقهـاء، واجتهـاداتهم، في المسـائل الفقهيـة المختلفـة، هـو شيء غـير سوي، أو خاطئ، بل هو الأمر المطلوب لكـل مـن كـان عـاجزاً عـن الاجتهـاد وفقـه الـدين بنفسه، فيتعبد آنذاك باتباع آراء الفقهاء واجتهاداتهم، و(مذهب العـامي مـذهب مفتيـه) على ما استقر عليه العمل بين العلماء.. وقصدنا ها هنا أن النـاس – آحـاد النـاس – ليسـوا ملزمين باتباع رأي فقهي معين، أو اجتهاد عالم من العلماء، دون غيره، باعتبـاره دينـاً ملزمـاً لهم، فليس لأحد – بعد رسول الله صلى الله عليه وبارك – عصمة من الخطـأ، وكـل يؤخـذ منه ويرد عليه إلا المعصوم – عليه الصلاة والسلام -.

فالخطاب الإسلامي، إذن، هو خطاب بشـري تماماً، ليست له قداسة الـدين، ولا ثباتـه، بل هو فهم للدين، يتغير بتغير الزمان والمكان، فهو خطاب في خدمة الإنسـان، ويـدور مـع مصالحه، وحاجاته، فحيثما كانت المصلحة فـثمّ شـرع اللـه، حسـبما أكـده علـماء الإسـلام الأعلام[159].

([159]) يقول ابن تيمية: "الشَّـرِيعَةَ مَبْنَاهَا عَلَى تَحْصِيلِ الْمَصَالِحِ وَتَكْمِيلِهَا وَتَعْطِيـلِ الْمَفَاسِـدِ وَتَقْلِيلِهَـا"، مجموع الفتاوى، تحقيق: أنـور البـاز ، دار الوفـاء، ط3، 1426 هــ / 2005 م(512 /10) . ويقـول ابـن

ومن هنا نستطيع القول بأن الخطاب الإسلامي ليس خطاباً أيـديولوجياً، مغلقـاً، بمعنـى أنه وإن كان يتأسس على القرآن الكريم، وهو نـص مقـدس متعـال، ولكـن القـرآن الكـريم نفسه هو الذي يوجه المسلمين إلى أهمية العقل، وضـرورة تحريره مـن كـل مـا يغلّـه مـن أوهـام، أو عـادات وتقاليـد، أو أفكـار مسـبقة، وعـدم الخضـوع لأي سـلطة، وأي فكـرة أو أيديولوجيا يصنعها الإنسان، لأنها ثمرة عقل ناقص، ونسبي!

وليس هذا بمعنى الحجر على العقل الإنسـاني، والفكـر البشـري، أو تحقـيرهما، ولكنـه بمعنى تحرير عقـل الإنسـان وروحـه مـن الوقـوع في أسـر إنسـان مثلـه، والـرزوح تحـت سلطانه!.. وبهذا يتحرر الإنسان من أسـر ما سواه، ويتساوى مع غيره في الإنسانية، وحريـة الفكر، والعقل، ولا يبقى فوقه، أو أعلى منه، سوى الله - سـبحانه - في عـلاه، الـذي خلقـه، ثم خاطبه بالوحي عن طريق أنبيائه، وأرسل إليه هدايته، لينير له الطريق في حياتـه.. فـإذا تحرر الإنسان من أسـر غيره، وتلقى الهدايـة مـن الـوحي، فإنـه بهـاتين الهـدايتين (الـوحي والعقل) يسـتطيع تسـخير الأسـباب الكونيـة لإعـمار الأرض، وللإبـداع في مختلـف جوانـب الحياة.

وهكـذا، فـإن الخطـاب الإسـلامي خطـاب متجـدد، ومتغـير، بطبيعتـه، وإذا تهيـأت لـه الأسـباب، ولم يـتم التضـييق عليـه ومحاربتـه، فإنـه يجـدد نفسـه دائمـاً بصـورة طبيعيـة، ويستجيب لحاجات الناس وحوائجهم بشكل سلس..

ويكفي لكي يكون الخطاب الإسلامي كـذلك، ويقـوم بهـذه المهمـة بنجـاح وكفـاءة، أن يتوفر له أمران، هما: العلم، والحرية..

العلم، ونقصد به كل تلك العلوم التي يحتاجها الإنسان من أجـل أن يكـون قـادراً عـلى فهم الدين، والاجتهاد في ميادينه المختلفة، بعيداً عن الجهل والتعصب والأمراض الفكرية.

وأما الحرية، فنقصد بها ذلك الفضـاء المـادي، والثقـافي، الـذي يهيـئ الأرضـية الحاضـنة لحركة الاجتهاد والتجديد، والذي يمكّنها أن تتم دون أن تخضـع لأي شيء أو سـلطة خـارج سياقها، وأن تتحرر من أي ضغط أو مصـلحة خـارج المصـلحة العليـا للمسـلمين، أو بعيـداً عنها.

القيم: "فإذا ظهرت أمارات الحق، وقامت أدلة العقل، وأسفر صبحه بأي طريق كـان؛ فـثم شـرع اللـه ودينه ورضاه وأمره"، إعلام المـوقعين عـن رب العـالمين، دار الجيـل - بـيروت، 1973م (473/4). ويقـول الإمام الشاطبي: "المعلوم من الشـريعة أنها شـرعت لمصالح العباد؛ فالتكليف كلـه إمـا لـدرء مفسـدة، وإما لجلب مصلحة، أو لهما معاً"، الموافقات، تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط1/ 1417هـ 1997م (1/ 318).

ولا يتحقق ذلك إلا عندما لا يكون لـ(السلطة) في ديار المسلمين – والمقصود: السلطة السياسية تحديداً - أن تتجاوز، أو تحتكر، حركة الفكر والعلم، ولا أن تشتري بأموالها العلماء والمفكرين، وتقيّدهم في مسارها، رغباً ورهباً..

ولقد لعبت (الأوقاف)، في الحضارة الإسلامية، دوراً كبيراً، ومؤثراً، في تحقيق شيء من ذلك، ولكن ذلك الدور قد تلاشى اليوم، مع استيلاء السلطة السياسية في الدولة الحديثة على مؤسسات الأوقاف، وجعلها تابعة للدولة، وحرمت بذلك العلماء والمفكرين من مصدر قوتهم، واستقلالهم.. ومع أن الدولة الحديثة قد حاولت معالجة ذلك بإيجاد بديل للأوقاف، متمثلاً في منظمات المجتمع المدني، ولكن ذلك لم ينجح في الدول المتخلفة، التي تحتكر فيها السلطة السياسية كل مناحي الحياة، وتستولي على كل مصادر القوة والثروة فيها، حيث تكون الدولةُ مصادَرَة لصالح الطبقة الحاكمة، ويكون العلم والعلماء أسرى لرغبات القوى الحاكمة، ومصالحها[160]..

ولذا، وفي ظل ظروف كالتي يعيشها العالم الإسلامي اليوم، فإن الأمل في ولادة خطاب إسلامي إصلاحي متجدد ومعاصر، لن يعدو أن يكون مجرد سراب في صحراء.

وعلى المسلمين - قبل كل شيء - أن يسعوا إلى إيجاد البيئة والأرضية التي تكون قادرة على استنبات مثل هذا الخطاب الإصلاحي، لأنه من دون هذه البيئة والأرضية لن يفلح ولن ينمو زرع ولا حياة.. ❐

([160]) ولا ننسى أن الاستقلال المالي هو عصب قوة منظمات المجتمع المدني هذه، ولو تسنى أن يعاد إحياء نظام الأوقاف، ويصان استقلالها، بعيداً عن سيطرة الدولة (السلطة السياسية)، وهيمنتها، لكان في ذلك مصدر قوة كبيرة لمنظمات المجتمع المدني في وجه تغول الدولة الحديثة.